**تأملات في الترجمة العلمية**

الترجمة ميدان هام من ميادين المعرفة و الثقافة و الفن. و هي في جوهرها عملية مقاربة و مقابلة بين أساليب لغوية مختلفة قد تتشابه أحيانا، و لكنّها تختلف في معظم الأحيان. و في كل الأحوال، تتضمّن تفاعلا فيما بين اللّغات يتولّد عنه إبداعا جديدا بلغة إمتطت لغة أخرى، و اتخذتها أداة للإجتهاد و وسيلة للإبتكار.

و للترجمة انعكاسات فكرية و سلوكية كبيرة على ممارسها قبل متلقّيها؛ فاللّغة المضافة، أو الثانية بالنسبة للمترجم، تخصّب أفكاره و سلوكاته، و تمنحه الشعور باتساع الأفق و الحريّة في التفكير؛ و بمعنى آخر فهي توسّع نطاق ممارسة الحريّة الإنسانية و السيكولوجية.

كما أنّ اللّغة المضافة تشغل قدرا كبيرا من طاقة المترجم الذهنية و العقلية؛ إلى جانب التبديل الذهني و ممارسة ذاتين في آن واحد، و ما يترتّب عن ذلك من بلورة و صقل لشخصيته التي ما هي إلاّ مجموع أفكاره و ثقافته و عاداته المؤثرة على صياغة أحاسيسه.

من خلال ممارستي للترجمة العلمية، و بعيدا عن الإلمام بنظريات الترجمة و مدارسها و النماذج الموضوعة لها من قبل أهل الإختصاص، أرتأيت أن أضع أمام المهتمين بالموضوع بعضا من تصوّراتي و أحكامي حول هذه الممارسة، و التي تبقى نسبية و مفتوحة على النقاش و التقويم والإسداء من المتضلّعين في الميدان. كما أعتبر هذه المساهمة المتواضعة محاولة لإثراء موضوع شائك كالترجمة، و بشكل خاص في المجال العلمي.

 إنّ موضوعا بهذه الأهميّة  يتطلّب منّا وقفة، بل وقفات لتقييم الجهود المبذولة من قبل ثلّة من المشتغلين بها، و التي تبقى في اعتقادي جهودا مبعثرة، و بعيدة كلّ البعد عن تحقيق ما نتطلّع إليه، من ترقيّة للغتنا و مواكبة لتحدّيات الألفية الثالثة. و إذا كان لا بد من الإستدلال على أهمية الترجمة العلمية، فيكفي أن أذكّر بالدور الذي لعبته على امتداد العصور في نقل المعارف و العلوم من حضارة إلى أخرى، إلى أن وصلت هذه إلى ماهي عليه اليوم. و أجد نفسي مضطرّا و فخورا لأن أذكرّ بالحيّز الذي شغلته إبان العصور الذهبية للحضارة العربية الإسلامية، أين انكبّ المشتغلون بها، و ما أكثرهم في ذلك العهد، على نقل علوم و فلسفات اليونان و الفرس و حضارات الشرق الأقصى إلى لغة الضاد، قبل أن يحذو علماء أوروبا حذو العرب و يعكفوا بدورهم على نقل العلوم و المعارف العربية إلى لغاتهم.

لقد مارست الترجمة، و لازلت، في حقل علوم الطبيعة و الأحياء لضرورة بيداغوجية و تعليمية محضة. فمع انعدام المراجع العلمية المستعملة في التدريس و إعداد المحاضرات باللّغة العربية في الجامعة الجزائرية، كان لزاما عليّ، كما على كثيرين، أن أقتحم ميدان الترجمة لتوفير المادة العلمية الموجّهة للطلبة، و لقد شجّعني في ذلك تحكّمي الجيّد في اللّغة الإنجليزية، و كذلك الفرنسية في اختصاصي العلمي، إضافة إلى خدمات الأنترنت. و شيئا فشيئا،  بدأت أجد بعض المتعة في مزاولة هذا النشاط الذهني المتميّز، و أقدم من حين لآخر على ترجمة بعض المقالات العلمية في ميدان العلوم الطبيعية و الطبيّة إلى اللّغة العربية، إعتقادا منّي بأهميّة المواضيع المنتقاة من المجلات العلمية المتخصّصة و غيرها ( متلازمة العوز المناعي المكتسب أو الإيدز، السّرطان، الطفيليات و جهاز المناعة، مورثات السرطان...) إضافة إلى ترجمة الأبحاث و الدراسات المتخصّصة و الموجّهة للنشر في الدوريات المتخصّصة في العلوم، و التي تتضمّن في أغلب الأحيان الترجمة إلى اللّغة الإنجليزية. كما عكفت على تأليف مقرّر علم المناعة العام، و الذي ارتكز بالأساس على نقل و ترجمة أساسيات هذا العلم المصاغة باللّغة الإنجليزية في أمّهات المراجع العالمية.

و مع مزاولة هذا الفن، كما يتفق البعض على تسميته، بدأت تتكوّن لديّ صورة، و لو مشوّشة في بعض الأحيان، عن حقل الترجمة؛ عن تجربتي المتواضعة، عمّا يجب أن يتوفّر في المترجم للمادة العلمية، عن طرق و أساليب ترجمة النّص العلمي، عن فكرة الإبداع في المصطلح العلمي و إبداعية المترجم، و عن مدى استيعاب اللّغة العربية للمادّة العلمية المتوفّرة باللّغات العالمية ذات الإنتشار الواسع و المهيمن.

**شروط الترجمة العلمية و ما يجب أن يتوفّر في المشتغل بهذا الحقل**

 أورد هنا بعض التصوّرات على شكل نقاط، و هي حتما قابلة للإثراء و المناقشة.

**1/** التحكم الجيّد في اللّغتين المترجم منها (اللّغة المصدر) و المترجم إليها (اللّغة الهدف)، و إتقانهما يكون أحسن؛ ليس الإتفان الأدبي و إنّما التحكم الكامل في العبارات المألوفة و المتداولة في علم ما، و هي على ما يبدو محدودة و يمكن السيطرة عليها بعد أعوام طويلة من الممارسة، خاصّة إذا اعتبرنا أنّ نسبة لا بأس بها من الكم اللّغوي عبارة عن مصطلحات علمية .

و قد يتأتى ذلك التحكّم من كون المترجم قد تلقّى تعليمه في الإختصاص باللّغتين المتعامل بهما، و كثيرا ما تتحقّق هذه الإزدواجية لدى الإطارات العربية ( عربية ـ فرنسية أو عربية ـ إنجليزية)؛ فهذا يتيح للمترجم القدرة على توظيف اللّغتين توظيفا سليما في ميدانه العلمي، إضافة إلى الإحاطة كلّية بالمصطلحات العلمية المتداولة في ميدان تخصّصه .و تقاس الكفاءة اللّغوية بمدى التحكّم في اللّغتين من الناحيتين الأدبية و التعبيرية زائدا القدرة على صياغة المعلومة صياغة سليمة باللّغتين.

و فيما يخصّني، إنّ كوني قد نهلت من منابع العلوم الحيوية باللّغا ت العربية، الفرنسية و الإنجليزية ، سمح لي بممارسة الترجمة في هذا العلم بثقة كبيرة في النفس، إزدادت نضجا مع مرور الوقت و عدم الإنقطاع عن الممارسة.

**2**/ التحكّم و التكوين الجيّد في مجال الإختصاص يسهّل و يساهم إلى حد كبير في إنجاح عملية الترجمة العلمية. فانطلاقا من كون الترجمة هي تحويل للمعارف و العلوم من لغة إلى أخرى، فإنّ الشرط الأوّل لإتمامها هو الإضطلاع بخبايا العلم و التخصّص فيه، لينصبّ اهتمام المترجم على عملية الترجمة و ليس على محاولة فهم و إدراك المادة العلمية .

**3**/ توفر الدافع الإضطراري لممارسة الترجمة العلمية، كعدم توفّر المراجع في لغة ما. إنّ ذلك يحتّم اللجوء إلى الترجمة قصد توفير المادة البيداغوجية اللازمة لممارسة النشاط التعليمي و التكويني. و مثال ذلك ما هو حاصل في الجامعة الجزائرية لمّا يتعلّق الأمر بتدريس العلوم التجريبية و التكنولوجيات باللّغة العربية؛ حيث يضطر الأساتذة إلى ممارسة الترجمة قصد توفير المادة البيداغوجية المنعدمة باللغة العربية أو تكاد.

و أشير هنا إلى أنّه على مستوى معيّن، يميل الأستاذ إلى تجميع المعلومات من مصدر أو مصادر لغوية مختلفة (مراجع مختلفة) ثمّ ينكب على صياغتها و تقديمها بأسلوبه الخاص بعيدا عن قيود الترجمة الحرفية، و من ثمّ تقديم مادة علمية جيّدة و راقية. و في اعتقادي، يبقى التأليف المعتمد على المراجع باللّغات الأجنبية أحسن و أنسب بالنسبة للعملية التعليمية بالجامعة.

**4**/ دوافع البحث العلمي المختلفة، حيث يجد الباحث نفسه مضطرا لاستخدام لغة أجنبية ما، كاللّغة الإنجليزية حاليا لاستحواذها على أكبر قدر من المنشورات و الإصدارات في مختلف العلوم و التكنولوجيات.

**5/** ديمومة الممارسة و عدم الإنقطاع عن الترجمة لفترة طويلة؛ لأن الإستمرارية في إنتاج الترجمة تساهم في تطوير هذه العملية الذهنية؛ فالمختصون يجمعون على أنّها ليست طبيعة، بل هي موهبة و يمكن اكتسابها و ترقيتها مع الزمن. إنّ عملية الترجمة ليست آنية و لا وحي، فهي لا تختلج مخيلة المترجم، و إنّما تبدأ عندما ينوي و يكون واعيا بالشروع في العملية.

**6**/ الإيمان برسالة حضارية ما، كأن يؤمن المترجم بضرورة النهوض بلغته الأصلية و ترقيّتها و تحويل العلوم و المعارف و الفنون إليها من الحضارات المعاصرة المتقدّمة، بغية جعلها مواكبة للتطوّرات الحضارية و التكنولوجية.

**7**/ حب اللّغتين و التعلّق بهما؛ اللّغة الأصلية (الأم) المستفيدة من الترجمة، و اللّغة الوسيلة المنقول منها؛ وفي اعتقادي لا يتأتّى هذا الشغف باللّغة الثانية إلاّ بممارستها و معايشة المجتمع الناطق بها و الإطّلاع على ثقافته وحضارته. إنّ ذلك يخلق نوعا من الإرتباط المعنوي، و لا أقول الحضاري، بين المترجم و اللّغة الأجنبية التي يستخدمها في إنجاز ترجمته.

**إنجاز عملية الترجمة العلمية وكيفية ترجمة النص العلمي**

إنّ الترجمة، كما يراها أهل الإختصاص، عملية معقّدة و تتضمّن في الواقع عدّة أنشطة فكرية توظّف اللّغة، الكتابة و الحالة النفسية للمترجم و ثقافته؛ فهي إدا عملية متعدّدة الإختصاصات multi-disciplinary ؛ إضافة إلى أنّها تتضمّن عملية أخذ القرار decision-making.

و في اختصاصي العلمي، وصلت إلي مستوى عال من التحكّم في اللّغة الإنجليزية ( هذا ليس صدفة إذا أخذنا بالإعتبار أنّني درست الإنجليزية في مركز متخصّص بجامعة بريطانية، زيادة على مزاولة تخصّصي الدقيق بجامعة بريطانية أخرى)، إلى درجة أنّني أقرأ النص و أستوعبه بشكل قطعي و بصورة آلية مع تخزين المعلومات مباشرة في ذاكرتي و دون المرور على لغتي الأم في اللاشعور؛ بمعنى أنّني توصّلت إلى نسبة لا بأس بها من التفكير باللّغة الإنجليزية في مجال تخصّصي. إلى هنا، أكون مرتاحا جدا في تكديس المعلومات و استيعابها، و لكن بمجرّد أن أتحوّل إلى مترجم، أجدني أستعدّ مع تركيز أكبر، و أستنفر طاقاتي الفكرية و استعداداتي الباطنية لنقل المعلومة و ايجاد المقابل للمفردات و المصطلحات في اللّغة العربية، و هي عملية ليست دائما سهلة، و كثيرا ما أستنجد برفيق المترجم الدائم؛ القاموس. أحيانا، إيجاد المقابل العربي للكلمة الواحدة أو العبارة يجهدني و يأخذ منّي وقتا ثمينا؛ كما أن عامل الزمن يلعب دورا مهمّا في نوعية الترجمة التي أنجزها؛ فقد يحصل و أن أشرع في العملية معتمدا على نقل المعلومة أو الفكرة العلمية دون التقيّد بالمفردات و سياقها في النص؛ و هنا أعتقد و أجزم بوجود نوع من الإبداع اللّغوي، ثمّ أصل إلى مرحلة ما أين أستكين إلى نوع من الترجمة الحرفية و الآلية مع حرصي على وجوب أداء المنتوج للمدلول و المعنى العلميين المقصودين في النص الأصلي.

و إذا كان لا بد من أن أقف عند أهمّ مشكل معرقل لعملية الترجمة العلمية، فهو بلا منازع المصطلح العلمي. و لا أقصد تلك المصطلحات المألوفة، كالخلية و الجزيئة و العضيّة و غيرها، و لكن تلك المصطلحات المستحدثة في اللّغة الإنجليزية و التي أضحت تتهاطل على المجتمع العلمي بغزارة لتواكب التطوّر الرهيب الذي تشهده مختلف العلوم و التكنولوجيات. و أودّ أن أشيرهنا إلى أنّ هذا المشكل يخصّ كل العاملين في حقل الترجمة من اللّغة الإنجليزية و إلى مختلف اللّغات، بما في ذلك اللّغات الأوروبية. قلت، قد أخفق في ايجاد المقابل لمصطح ما في اللّغة العربية، أو في اختيار واحد من عدّة مرادفات محتملة، و هو أمر مرهق أحيانا من الناحية النفسية، و مردّ ذلك في اعتقادي يرجع إلى نوع من الخوف في تحمّل مسؤولية ترجمة المصطلح بصفة إنفرادية. فعلى سبيل المثال لا الحصر، المصطلح الوراثي التقني "***knock out genes*** " يمكن أن يقابله مصطلح " إلغاء المورّثات" أو " حذف المورّثات" أو " تثبيط المورّثات" و يصعب الإختيار بالرغم من وضوح المعنى تماما لدى المختصّ. لنأخذ مثالا آخر، و ليكن " *immunological* ***deviance*** " ، بمعنى إنحراف عمل جهاز المناعة عن الوضع الفسيولوجي الطبيعي و ما قد يترتّب عن ذلك من إختلالات و حتى أمراض مناعية؛ فقد يكون المقابل هو " ***الإنحراف*** *المناعي*"، قياسا مثلا بمفردة " الإنحراف" المكوّنة للمصطلح الرّياضي " الإنحراف المعياري" المستخدم في علم الإحصاء، و الذي يقابل المصطلح الإنجليزي "***standard*** ***deviation***" ؛ ولكن و بالرّغم من وضوح الفكرة العلمية فإنّ هذا المقابل يبقى هشّا بسبب الإجتهاد الإنفرادي في وضع المصطلح.

و عليه، فإنّ السّند القوي للترجمة العلمية هو وجوب توفّر المعاجم العلمية المتخصّصة لتعطي للمترجم ثقة أكبر، و إلاّ فإنّ عدم اليقين المطلق في إدراج المصطلحات المناسبة المقابلة تؤثر في نفسيّته و عزيمته. و أخيرا، لنا أن نحلم بظهور برامج معلوماتية في ميدان الترجمة العلمية المتخصّصة من و إلى اللّغة العربية، على غرار البرامج المتوفّرة مع اللّغات الغربية على وجه الخصوص. إنّ ذلك سيسهم في زيادة وتيرة الإنتاج المعرفي المترجم من و إلى اللّغة العربية. و ستقع حتما مسؤولية إعداد مثل هذه البرامج على الكفاءات العربية المتميّزة في ميادين المعلوماتية و العلوم و اللّغات.

**إبداعية المترجم و فكرة الإبداع في المصطلح العلمي**

حينما يتكلّم البعض عن خروج المترجم من حدوده اللّغوية و الإنتقال إلى حدود لغة أخرى، مع ما قد يصحب ذلك من معاناة من الضغوطات النفسية و الحضارية، فإنّني أسجّل عدم شعوري بذلك كمزاول للترجمة العلمية، لأنّ تعاملي إنّما يتم مع معنى النص العلمي و ليس مع روحه. إنّ مترجم النصوص العلمية التجريبية يكون أكثر تحرّرا من المعاناة النفسية التي قد تنجم عن التباينات الحضارية، بل و أحيانا عن الصّدام الحضاري، لسبب بسيط وهو عالمية العلوم و المعارف التجريبية.

و عليه، فإنّ قضية الإبداع في الترجمة العلمية ليست مطروحة بتلك الحدّة المتعارف عليها في ترجمة العلوم الإنسانية و الآداب العالمية. إنّ الهدف بيّن في الترجمة العلمية و هو نقل و إيصال المعلومة العلمية بأيّ شكل كان و بأيّة صياغة ، بعيدا عن التنميق المألوف مع النصوص الأدبية مثلا.

كما أنّ مفهوم الترجمة كخيانة للنّص الأصلي، غير وارد تماما في الترجمة العلمية، طالما أنّنا نتعامل مع المعنى العلمي و ليس مع روح النّص أو دلالاته و مقاصده و فلسفته. إنّها عملية مباشرة، و تكاد تكون آلية مع اختصاصات معيّنة، مثل العلوم الرّياضية، مع حريّة كاملة للتّصرف بهدف نقل المعلومة العلمية إلى اللّغة الهدف. و عليه، فإنّ عملية الترجمة ممكنة و متيسّرة جدا للعامل في الميدان. فلا تفاوت كبير في مدلول الكلمات المستعملة في التعبير عن معلومة علمية ما على اختلاف التراكمات الحضارية المؤثّرة في اللّغات المعنية بعملية الترجمة.

كما أنّ مفهوم إبداعية المترجم في حقل العلوم التجريبية، يختلف عن ذلك المتعارف عليه في العلوم الإنسانية و الآداب. إنّ المترجم العلمي ليست من أولوياته إبراز شخصيته و الإيحاء بوجودها و وضع بصماته على عمله المنجز. إنّ اهتمامه غالبا ما يكون منصبّا على نقل المعلومة كاملة غير منقوصة و بأمانة مفروضة، فهي لا تحتمل التجزئة و لا التأويل. و متى اتفقنا على المصطلح العلمي، فإنّه يمكن الحصول على تراجم متقاربة جدا لنفس النص العلمي. إنّ التعامل مع ترجمة النصوص العلمية لا يتيح مجالا للتأويل و إبراز القناعات الشخصية  طالما أن الترجمة العلمية هي ممارسة علمية موضوعية مباشرة، و تكاد تطبع بالآلية.

**فكرة الإبداع في ترجمة المصطلح العلمي**

هل يحقّ للمترجم المعزول في اختصاص علمي ما أن يخلق المصطلح العربي الذي يرى أنّه بوسعه أن يعبّر بصدق عن مدلول المصطلح الأجنبي؟ و ما هي الهيئة أو الهيئات المخوّلة لإعطاء هذا الحق للمترجم أو نزعه؟ ثمّ ألا يؤدي ذلك إلى ظهور مصطلحات عديدة مقابلة لنفس المصطلح الأجنبي في التراجم العلمية العربية؟ و إذا كان كذلك ـ و واقع الحال يثبت ذلك ـ ، فما هو الحلّ لتوحيد المصطلح العلمي؟

من تجربتي المتواضعة جدا، أرى أنّ أنسب وسيلة لتحقيق الإنسجام و التوافق بين المترجمين و الباحثين و الجامعيين العرب فيما يخصّ تداول المصطلحات العلمية العربية، هو إنشاء معاجم عربية موحّدة على شكل بنوك للمعلومات تنشر على شبكة الأنترنت، و تكون تحت تصرف الباحثين و الأكاديميين إطلاعا و إثراءا و تواصلا. إنّ مشروعا كهذا ـ إن لم يكن يوجد بعد ـ يتطلّب دعما ماديا و معنويا من الهيئات الرّسمية و تجاوبا و اجتهادا من لدن المختصّين.

و لعلّ قائلا يقول: لماذا لا نهتم أوّلا بتوحيد المصطلح العلمي على مستوى محلي، كأن توضع هيئة جامعية أو وطنية قصد إنجاح المشروع داخل كلّ قطر؛ ثمّ يحدث بعد ذلك التقارب و التنسيق فيما بين هذه الهيئات لإنجاز معاجم المصطلحات العلمية و التقنية العربية الموحّدة. أرى أنّ هذا الطرح مقبول كذلك، و لا يسعنا أمام الفراغ و العشوائية التي تطبع أعمالنا إلاّ أن نبارك آية مبادرة تهدف إلى تحقيق المشروع المنشود.

أمّا عن تقنيات و أساليب تعريب المصطلح العلمي، فهي تختلف من مدرسة عربية إلى أخرى؛ فالملاحظ أن المدرسة المصرية مثلا تنتهج طريقة تعريب المصطلح الأجنبي كما ينطق مع بعض التحوير الطفيف، كالألكلة، البسترة ، الأبسنة ، الأنتيجين و المتابولزم ، و ما إلى ذلك، في حين يميل علماء الشام و العراق إلى اشتقاق المصطلح العربي الأصيل للتعبير عن مدلول المصطلح الأجنبي. و يتّخذ علماء المغرب العربي موقفا وسطا بين المدرستين. بقي أن نسأل عن مدى نجاح التجارب العربية في هذا الميدان؛ و هنا أجد نفسي مضطرا لترك الإجابة إلى المختصّين و المتضلّعين في حقل اللّغات و الترجمة.

**اللّغة العربية و العلوم الحديثة**

هل تستطيع اللّغة العربية إستيعاب المعلومات و المصطلحات و المستجدات الواردة إليها من علوم و تكنولوجيات الحضارات المعاصرة، و بخاصّة الغربية منها؟

لا أستطيع أن أجيب لا بالنفي و لا بالإيجاب، و لكنّ المؤكّد أنّ ذلك لا و لن يتأتّى إلاّ باستنفار كل الطّاقات و المواهب العلمية و الفكرية و اللّغوية في الوطن العربي. و أن لا سبيل لتحقيق ذلك غير تشجيع و تحريك آلية الترجمة، تماما كما فعل الأجداد منذ قرون خلت.

إنّ تشجيع الترجمة بشكل عام، و العلمية منها على وحه الخصوص لا بد و أن يكون بإيعاز من القائمين على سياسات التعليم و البحث العلمي. كما أعتقد و أنّه في نظام تعليمي مزدوج اللّغة، كما هو الحال في كلّ الدوّل العربية، لن يشتغل الكثير بحقل الترجمة العلمية، طالما أن البديل للّغة العربية موجود و بقوّة، و أعني البرامج  و المناهج التعليمية المفصّلة باللّغتين الإنجليزية و الفرنسية . إنّ هذا الواقع المفروض، يطرح بحدّة إشكالية الإضطرارية للبعض، و أعني العاملين باللّغة العربية، في الوقت الذي يعفي البعض الآخر تماما من ممارسة الترجمة، و أعني بهؤلاء العاملين باللّغة الأجنبية. و من هذا المنطلق، أرى أنّ تفعيل ممارسة الترجمة العلمية يعمل و ينشأ في نظام تعليمي موحّد و ليس مزدوجا كما هو واقعنا الحالي.

**ملاحظة:** قدم الموضوع أصلا في الملتقى الدوّلي للترجمة/ جامعة  قسنطينة- الجزائر/ 15ـ17 ماي 2004